บทความทางวิชาการ

خطاب الأقليّة المسلمة

محمّد بن داود سماروه*

ملخص البحث

إنّ قضيّة الأقليّة المسلمة قضيّة واقع، أو حالة حضاريّة أو ثقافيّة ، تسترعي الاجتهاد الفقهي والفكري بشكل عام، في ضوء تبدّل الواقع الّذي نعيشه، أو تبدّل المجتمعات من حولنا في حقبة العولمة، الأمر الّذي يقتضي إعادة النظر في أحكام الفقه في ضوء معطيات مصادر التشريع الإسلامي، ويهدف هذا البحث إلى معرفة ماهيّة خطاب الأقليّة المسلمة، وأهداف وخصائص هذا الخطاب، وقد انتهج الباحث في هذا البحث النهج المكتبي ، وتوصّل خلال هذه الدّراسة إلى المرتكزات التالية الّتي تشكّل مقوّمات هذا الخطاب : 1- أن لا يخدم خطاب الأقليّة المسلمة إلاّ المصلحة الإسلاميّة ، لما يتّصف بالوسطيّة والاعتدال. 2- أن يتوجّه خطاب الأقليّة المسلمة إلى المجتمعات الإنسانيّة كافة، بسعة الأفق نحو التعايش والتعاون الإنساني لما فيه الخير لجميع البشر، والسّعي إلى إقرار مبادئ الحق والعدل والسّلام. 3-أن يتلاءم خطاب الأقليّة المسلمة وظروف كلّ بيئة، وأحوال كلّ فئة من الناس. 4-أن يرمي خطاب الأقليّة المسلمة إلى الإصلاح والتجديد والترشيد على مستوى الذات، ويسعى إلى توضيح حقائق الإسلام والرّد على الشبهات المثارة حوله بالمنهاج الوسطي على مستوى الآخر. 5-أن يتّسم خطاب الأقليّة المسلمة بالانفتاحيّة والاندماجيّة في أوساط المحيط المحلّي والإقليمي والدّولي؛ باستيعاب المتغيّرات والمستجدّات .

Abstract

The problem of Muslim minority is contemporary issue. In holistic view it necessitates to strive hard to solve the problem in law aspect together with new concept to look at the problem according to real changing situations or the changing surroundings. To that end the need to reassess the law concerned with Muslim minority in the Islamic law perspective is a must. This research aims to study the extensive, objective and characteristic of Islamic Moral related to Muslim minority and the researcher applies documentary research method to study the proposed suggestion. The result of research reveals as follows;

1. The Islamic moral of Muslim minority is balanced and fair.

2. The Islamic moral of Muslim minority will be extended to every human society in order that all human-beings can live together peacefully ,which will lead the goodness to all mankind together with concordance with the fundamental of righteousness, justice and peace.

3. The Islamic moral of Muslim minority is corresponding with every context and situation of all mankind.

* ماجستير في الدّعوة الإسلاميّة، محاضر بقسم أصول الدين – كليّة الدّراسات الإسلاميّة، جامعة جالا الإسلاميّة.

4. The Islamic moral of Muslim minority must be gotten to the point to correct, reform and advice all Muslims and elucidated the facts of Islam , going along with reviewing vague alleged dispassionately to other religious beliefs.

5. The Islamic moral of Muslim minority is naturally wide-open quality with the capacity to integrate with any localities, nations and regions in accordance with any new changes and affairs.

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين القائل :

﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

(الأنفال، 8: 26).

والصّلاة والسّلام على رسوله المبعوث رحمة للعالمين ،القائل:

"تجدون الناس كإبل مائة ، لايجدُ الرّجل فيها راحلة "

(مسلم، **صحيح**، كتاب فضائل الصّحابة، رقم : 4620) عن ابن عمر.

إنّ قضيّة الأقليّة هي في حقيقتها قضيّة نسبيّة، تختلف فيها معايير النظر والحكم والتقويم والنتائج، فعلى مستوى القيم الإسلاميّة نجد في الكتاب والسنة، والعطاء الحضاري الإسلامي التاريخي، أنّ معيـــار التفاضل والكرامة والإنجاز، لم يكن أبداً منوطاً بالكمّ من حيث الكثرة والقلّة، وإنّما يتحقّق بمقدار العطاء ونوعيّته، فالأكرم هو الأتقى، وليس الأكرم الأقل ولا الأكرم الأكثر. (خالد محمد عبد القـــادر. 1998. العدد 61: 16، تقديم الشيخ عمر عبيد حسنه).

ولقد تعهّد الله ﷻ بإظهار الدّين الإسلامي على الدّين كلّه ، فقال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾

(التوبة، 9: 33).

والإظهار يعني فيما يعني الامتداد والبلوغ لسائر المواقع الجغرافيّة، قال رسول الله ﷺ :

"ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنّهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله هذا الدّين بعزّ عزيز، أو بذلّ ذليل ، عزّاً يعزّ الله به الإسلام، وذلاً يذلّ الله به الكفر"

(أحمد، **المسند**، مسند الشاميين، رقم: 16344). عن تميم الدّاري.

حيث سيعمّ البلاغ الحواضر والبوادي، وهذا يعني تحقيق الوجود الإسلامي في كلّ المواقع الجغرافيّة. ووجود المسلمين يعني إقامة أحكام الشرع الإسلامي، والانضباط بالقيم الإسلاميّة على الأصعدة

المتعدّدة المتاحة سياسيّا واقتصاديّا، اجتماعيّا وإداريّا، تربويّا وتعليميّا، فكريّا وثقافيّا في ضوء الاستطاعات المتاحة، وإن كان هذا الوجود الإسلامي تمثله قلّةٌ مسلمة.

لذلك كان فهم الصّحابة لأبعاد المهمّة واستجابتهم، منسجمًا مع التكليف الشرعي، فحملوا الإسلام صوب العالم كلّه، واستطاعوا العيش والتكيّف مع كلّ الظروف، شأنهم في ذلك شأن الإسلام بمبادئه العالميّة والإنسانيّة، واستوطنوا البلاد، وعاشوا إسلامهم بمقدار استطاعتهم، استجابة لقوله تعالى:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ (التغابن، 64: 16).

ولم يُحسّوا بعُقدة الاغتراب، أو أن يميّزوا في مجال الدّعوة بين أرض وأرض، أو بين جنس وجنس، أو بين أقليّة وأكثريّة، وإنّما هي قدرات واستطاعات قد تتوفّر في إطار الأقليّة العدديّة:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة، 2: 249).

ذلك أنّ ميدان الغلبة والظهور والصّراع والحوار الحضاري، الحياة بكلّ أصعدتها، العسكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة والاجتماعيّة والتنمويّة.

إنّ في امتلاك المسلمين الميزان الحق، والتحلّي بالقيم الصّحيحة، لاستيعاب الحياة بكلّ مجالاتها، وكيفيّات التعامل معها؛ فيه الغلبة الحضاريّة، الّتي تكمن في الجودة والكفاءة النّوعيّة. فقد تكون المحصّلة فرداً يعدل أمّة كاملة، ويكون أمّة فعلاً بما يمثّل وما يحقّق، قال تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

(النحل، 16: 120).

(خالد محمد عبد القادر. 1998. العدد 61: 17، تقديم الشيخ عمر عبيد حسنه).

الأقليّة المسلمة ووجوب الخطاب الإسلامي

تشترك الأقليّة مع الأغلبيّة المسلمة في إطار جوهري، وهو تعرّض العقيدة والقيم والسّلوك والشخصيّة والنسق المعرفي الخاص بها لتحديّات أو تهديدات مبعثها الإطار المحيط غير المسلم، ومن ثم فهي تواجه مشكلات في المجالات المختلفة، ولكن تختلف بالطبع من إقليم إلى آخر درجة هذه التهديدات، وتأثيراتها على الشخصيّة المسلمة؛ فقد تصيبها بالضّرر أو التشويه، وقد تحول بينها وبين التأصيل السّليم، أو قد تودي بها تماماً، بحيث لا يصبح للمسلم من الإسلام إلاّ الاسم أو الشكل فقط، بل وربّما يصل الأمر إلى فقدان هذا الحدّ الأدنى أيضاً. (مجلة الفرقان. 2006. ملف العدد 362: 1).

وبالرّغم من الخصوصيّة في دراسة الأبعاد الشرعيّة للأقليّة المسلمة؛ إلاّ أنها لا تنفصل عن الأبعاد السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة الّتي تكون الظروف الموضوعيّة الّتي يعايشها مسلمو الأقليّات والّتي تؤثّر على أسس قواعد الشخصيّة المسلمة.

بالتالي فإنّ هذه التحديّات ليست في حقيقة الأمر تحديّات للإسلام كدين، وإنّما هي تحـــديّات لأفهام المسلمين. فإذا ارتفعت هذه الأفهام إلى مستوى الأحداث، وأدركت مقتضيات العصر ، في إطـــار المرجعيّة الأصيلة، فسنجد أنّ الإسلام من أشدّ أعوانها على التغلّب على كلّ التحديّات، فالإسلام ديـــن للحياة بكلّ معنى الكلمة، وهو صالح في جوهره لكلّ زمان ومكان، ومتوائم مع طبيعة الإنسان.

أمّا إذا قصرت همم المسلمين وأفهامهم عن استيعاب تطوّرات العصر ومتغيّرات الحيـــاة، فإنهـــا ستكون أيضا قاصرة عن فهم طبيعة التعاليم الإسلاميّة، وغير مدركة لِـــمَا تشتمل عليـــه مـــن مرونـــة. (زقزوق، 2005: 1- 10).

ويمكن وصف أوضاع الأقليّة المسلمة في ديار غير إسلاميّة بأنها أوضاع ضرورة بـــالمعنى العـــام للضرورة الذي يشمل الحاجة، والضرورة بالمعنى الخاص.

ولهذا احتاجت إلى خطاب خاص، ولا يعني ذلك إحداث خطاب جديد خارج إطار التشريع الإسلامي ومصادره وما ينبني عليها، وإنّما النظر إلى قضايا الأقليّة المسلمة بوصفها مسائل فقهيّـــة قديمـــة بالجنس، حديثة بالنوع.

ماهيّة الخطاب الإسلامي

للخطاب مفهومان، المفهوم الأوّل أصيل، ثابت، بسيط غير مركّب، عرفته العـــرب وورد في القرآن الكريم، وفي الحديث النبوي، وفي المعاجم اللغويّة الأولى.

أمّا المفهوم الثاني، فإنه معاصر وذو طبيعة تركيبيّة يتعدّى بها الدّلالة اللغويّة، إلى الدّلالة الفلسفيّة، والدّلالة السياسيّة، والدّلالة الإعلاميّة، وتتوضّح الفروق بين الدّلالات حسب السياقات الّتي تورد فيها.

وعلى مستوى المفاهيم الحديثة: فإنّ الخطاب هو بمعناه الشّامل لكلّ الإنتاج الفكـــري والثقـــافي والسّياسي والتربوي والإعلامي والأكاديمي والعلمي والأدبي، ووسائل وأدوات الاتّصال جميعهـــا ومـــا يتطلّبه ذلك من أهميّة وضرورة المراجعة الناقدة، التي تمكّن المسلم من تحديد مواطن الخلل وتبصره بوسائل النهوض، خاصّة وأنّ الأمّـــة الإسلاميّة تشكّلت من خلال خطاب وبلاغ وبيان.

ولا غرو من ترادف الخطاب الإسلامي مع الدّعوة الإسلاميّة، بحيث يتداخل المفهومان في أحايين كثيرة لدرجة التطابق. ولكن مفهوم الخطاب الإسلامي أبعد مدًى وأوسع أفقًا وأعمق دلالةً من مفهـــوم الدّعوة الإسلاميّة، ولا غضاضة في استبدال (**الخطاب الإسلامي**) بعبارة (**الدّعوة الإســـلاميّة**)، مـــا دام القصد هو إيجاد صيغة أكثر شمولاً وأعمق دلالةً للتعبير عن المعنى المقصود، ولتحقيق الهدف المنشود.

والتّلازم بين الخطاب الإسلامي والخطاب الدّعوي، هو أنّه مادام انتهج المسلم سبل وأســـاليب حياته في إطار رقيٍّ حضاريٍّ للخطاب الإسلامي، كان— من ثمّ–داعيًا مثيراً للاقتـــداء؛ وذلـــك هـــو الخطاب الدّعوي.

إنّ المناهج والأساليب تتجدّد بتطوّر المجتمع، وبنشوء ظروف جديدة تتطلّب المسايرة والمواكبـــة والتكيّف، ولكن المضامين ـــ في المنظور الإسلامي ـــ لا تتجدّد إلاّ بالقدر الّذي يزيـــدها وضـــوحًا وإشعاعًا وتأثيرًا. (التويجري، 2003: 11– 16).

فالاصطلاح الناشئ – مثلاً –: دار الحرب ودار الإسلام هو مصطلح اجتهادي – ابتداء – ومع حالة الاحتقان السّياسي العالمي؛ فإنّ الأفضل أن يُستبدَل بدار الإسلام «**أمّة الإجابة**» لمن آمنوا واستجابوا، وبدار الحرب «**أمّة الدّعوة**» لمن لايزالون على الكفر، ومحلاً للدّعوة – كما نقل ذلك الرّازي في تفسيره؛ لوجود أقليّات مسلمة من أمّة الإجابة في مجتمعات غير مسلمة من أمّة الدّعوة، فهذه الأقليّات المسلمة (هي من الأمّة المسلمة) في هذه المجتمعات غير المسلمة (التي ليست من الدّولة المسلمة، أو من دار الإسلام). (خالد محمد عبد القادر. 1998. العدد 61: 25، تقديم الشيخ عمر عبيد حسنه).

لذا من الضّرورة والأهميّة بمكان أن يكون للخطاب الإسلامي في حركته الدّعويّة إلى الإسلام، الدّور الأساس في انفتاح الوجدان الإنساني على الإسلام، وتحريك المشاعر والانفعالات، وتقديم المضمون الحيوي الّذي يلتقي مع الحاجات الإنسانيّة، والمنطق العام الّذي يرتكز على العقل تارة، وعلى العاطفة أخرى؛ لأنّ الإنسان الذي يُتوجّه الخطاب إليه في عقله وقلبه ورغباته ومخاوفه، هو مخلوق متحرّك متغيّر تبعاً للمؤثرات الّتي تترك آثارها المختلفة على كيانه، ما يجعله بعيدًا عن الاستقرار الذّاتي الذي يربطه باللّون الواحد، والمضمون المحدّد، والشكل الخاص، والمنهج الثابت، وهذا هو الذي يفرض التوازن بين خصوصيّة الخطاب وخصوصيّة الإنسان.

ماهيّة الأقليّات المسلمة

الأقليّات هي جماعة من السّكان من شعب معين عددهم أقلّ من بقيّة السّكان ، لهم ثقافتهم ولغتهم ودينهم، ويطالبون بالمحافظة على شخصيّتهم وثقافتهم على أساس نظام معين. (العمري، 1985: 28).

وفي اصطلاح آخر: الأقليّات هي كلّ مجموعة بشريّة في قُطرٍ من الأقطار تتميّز عن أكثريّة أهله في الدين أو المذهب أو العرق أو اللغة أو نحو ذلك من الأساسيّات الّتي تتمايز بها المجموعات البشريّة بعضها عن بعض. (القرضاوي، 2001: 15)

إنّه بالاستناد إلى المعيار العددي، وبالاحتكام إلى المقتضيات القانونيّة والدّستوريّة المتعارف عليها دوليّاً، نخلص إلى أنّ الأقليّات الإسلاميّة، هي إحدى الفئات الثلاث التالية:

أوّلاً: رعايا دولة غير إسلاميّة، ينتسبون إلى هذه الدّولة بالأصل والمواطنة، عليهم ما على مواطني تلك الدّولة من حقوق وواجبات. وتمثل هذه الفئة النسبة العالية من الأقليّات الإسلاميّة. ويندرج تحت هذه الفئة أيضًا، مواطنو الدّول غير الإسلاميّة الّذين اعتنقوا الإسلام في أوطانهم، فهم جزء لا يتجزّأ من شعوبهم، ولاينقص دخولهم في الإسلام شيئاً من مواطنتهم.

ثانياً: رعايا دولة إسلاميّة يقيمون في دولة غير إسلاميّة، ويخضعون لمقتضيات القانون الدّولي ولأحكام القانون المحلّي. وتأتي هذه الفئة في الدّرجة الثانية من حيث التّعداد.

ثالثاً: رعايا دولة غير إسلاميّة يقيمون في دولة أجنبيّة غير إسلاميّة، وتمثل هذه الفئة نسبة كبيرة من الجماعات والأقليّات الإسلاميّة المقيمة في دول غربيّة وشرقيّة عديدة. (التويجري، 2003: 15).

أهميّة خطاب الأقليّة المسلمة

الأقليّة المسلمة في كلّ مكان من العالم، لابدّ أن تستشعر بأنّها تمثل الأمّة الإسلاميّة في بلادها وإقليمها ومنطقتها، في موطنها ومهجرها، وهي على ثغرة من ثغور الإسلام، تقوم بالواجب الدّعوي والحوار الهادف مع أفراد الأغلبيّة، لاسيّما في البلاد الّتي تسمح بذلك، والمسلمون في مختلف أحوالهم يتحمّلون مسؤوليّة كبرى في التصدّي للحملات التضليليّة، بالمنهج الإسلامي الحكيم، الّذي يدعو إلى السّلام والتعايش الإيجابي، وينبذ العنف والإكراه، ويرفض الإرهاب بكلّ صوره وأشكاله، ويدينه، ويعدّه إفسادًا في الأرض، وعدوانًا على الإنسانيّة، وعلى الحضارة بما فيها الفكر والعلم والثقافة.

لهذا فإن كان الخطاب الإسلامي واجب على عواتق المسلمين بشكل عام، فإنّه يكون على الأقليّة المسلمة أوجب لحاجتها الذّاتيّة إليه، فلا بدّ لها أن تبذل غاية الجهد حتى تخرج عن كونها أقليّة، وتزول عنها هذه الصّفة بإسلام الأغلبيّة، أو على الأقل يتأثر من حولها بها، لا العكس.

أهداف خطاب الأقليّة المسلمة

الخطاب الّذي ننشده للأقليّة المسلمة له أهداف ومقاصد للسعي إلى تحقيقها في حياة هذه الأقليّة في إطار أحكام الشّريعة الإسلاميّة وقواعدها، فلا بدّ من تحديد أهداف الدّعوة العامّة والأساسيّة، وأهدافها الاستراتيجيّة، وأهدافها المرحليّة، وكذلك أهدافها الخاصّة بالفئة، أو البلدة والمكان.

وفي ضوء الأهداف الدعويّة المحدّدة يُصاغ الخطاب الإسلامي الدّعوي، وينطلق على أساس تحقيقها، ويراعى في تحصيلها ترتيب الأولى، وتقدير الأصلح، واعتبار الأمكن والأقدر والأقرب للتحقّق والتّحصيل في ذلك، مع اتخاذ وسائط التغيير الاجتماعي، والإصرار على الثبات في القيم والمبادئ في كلّ حال وزمان ومكان وبيئة ووضع. (د. عبد الله الزّبير عبد الرحمن. 1421. العدد 76: 96).

وتتلخّص هذه الأهداف في النقاط التالية:

(أ) أن يعين الأقليّة المسلمة — أينما كانت أفرادًا وأُسَرًا وجماعات — على أن تحيا بإسلامها حياة ميسّرة بلا حرج في الدّين، ولا إرهاق في الدّنيا.

(ب) أن يساعد الأقليّة المسلمة في المحافظة على جوهر شخصيّتها الإسلامية المتميزة بعقائدها وقيمها وأخلاقها وآدابها ومفاهيمها المشتركة، بحيث تكون صلاتها ونسكها ومحياها ومماتها لله ربّ العالمين، ويمكّنها من تربية وتنشئة ذريّاتها على ذلك.

(ج) أن يمكّن الأقليّة المسلمة من القدرة على أداء واجب تبليغ رسالة الإسلام العالميّة لمن يعيشون بين ظهرانيهم، بلسانهم الذي يفهمونه ليبيّنوا لهم ويدعوهم على بصيرة، ويحاوروهم بالتي هي أحسن.

(د) أن يعين الأقليّة المسلمة على المرونة والانفتاح المنضبط، حتى لا تنكمش وتتقوقع على ذاتها، وتنعزل عن مجتمعها، بل تتفاعل معه تفاعلاً إيجابيًّا تعطيه أفضل ما عندها، وتأخذ منه أفضل ما عنده على بيّنة وبصيرة، وبذلك تحقق المجموعة الإسلاميّة هذه المعادلة الصعبة: (**انطلاق بلا انغلاق.. وتفاعل بلا انفعال.. وتعاون بلا تماون**).

(هـ) أن يُسهم في تثقيف الأقليّة المسلمة وتوعيتها، بحيث تحافظ على حقوقها وحريّاتها الدينيّة والثقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة الّتي كفل لها الدّستور، حتّى تمارس هذه الحقوق المشروعة دون ضغط ولا تنازلات.

(و) أن يعين الأقليّة المسلمة على أداء واجباتهم المختلفة: الدينيّة والثقافيّة والاجتماعية وغيرها دون أن يعوقهم عائق من تنطّع في الدّين، أو تكالب على الدنيا، ودون أن يفرطوا فيما أوجب الله عليهم، أو يتناولوا ما حرّم الله عليهم، وبهذا يكون الدّين حافزا محرّكًا لهم، ودليلاً يأخذ بأيديهم، وليس غلاً في أعناقهم، ولا قيدًا بأرجلهم. (القرضاوي، 2005: 12– 13).

خصائص خطاب الأقليّة المسلمة

ثمّة–ابتداءً–سؤالاً يطرح نفسه: هل بالضّرورة أن يكون خطاب الأقليّة المسلمة بغيرها من الأكثريّة غير المسلمة ما يؤجّج القتال والحرب؟ وهل ثمّة ما يبرّر القيام بأعمال عنف ضد الأغلبيّة غير الإسلاميّة من المدنيّين؟

إنّ كلّ خطاب – بلاغرو – يتميّز بمزايا، ويُقوَّم بمقوّمات، ويختصّ بخصائص، ولا يكون الخطاب جادّا ولا هادفا، إلاّ إذا توفّرت هذه المزايا، وتلك المقوّمات، والخصائص. وما من خطاب إلاّ ويعبّر عن ذاتيّة المخاطِب، ويعكس هويّته، ويترجم فكره، فكيف إذا كان هذا الخطاب إسلاميًّا! فإنّه لابدّ أن يتزاوج في مفرداته، ويندمج في مركباته، ويتكامل في مصطلحاته ودلالاته؛ بحيث يرتقي إذا كان إيجابًا، ويتطوّر ارتقاء تبعًا للإيجاب، ويكون معبّراً عن خصوصيّات المجتمع الإسلامي، وعن الهويّة الحضاريّة للأمّة الإسلاميّة.

ومع جلل الخَطْب، فإنّ الخطاب الإسلامي لابدّ أن يكون جليلاً بحيث يستند على ثوابت الأمّة الإسلاميّة ويتمسّك بها، وتتمثّل هذه الثوابت في: (**العقائد الّتي تمثل نظرة الإسلام الكليّة، والعبادات الّتي فرضها الله على عباده لحقّ الربوبيّة والألوهيّة، والقيم الأخلاقيّة العليا الّتي تحدّد علاقة الإنسان بربّه، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، ثمّ الأحكام القطعيّة الّتي لها صلة بشؤون الفرد والأسرة والمجتمع، والحكم والعلاقات الدّوليّة**)؛ الّتي ثبتت بالنصوص المحكمة القطعيّة في ثبوتها ودلالتها، وأجمعت عليها الأمّة، واستقرّ عليها الفقه والعمل. (القرضاوي، 2002: 268).

فهذه هي الثوابت التي لا يجوز للخطاب الإسلامي أن يفرط فيها، أو يتجاوزها. وله أن يتحرّك ويتجدّد ويتطوّر في إطار هذه الثوابت. فإذا انحرف الخطاب عن جادّتها، أصبح خطاباً آخر لا يجوز تحميل الإسلام تبعاته.

لذا باستقراء النصوص، نجد أنّ القرآن الكريم حدّد العلاقة بين المسلمين وبين غيرهم في آيتين من كتاب الله، تعتبران بمثابة الدّستور في هذا المجال، وذلك في قوله تعالى:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة، 60 : 8) .

وهذا في شأن الوثنيين، الذين نزلت بخصوصهم الآية الكريمة، وبالتالي يكون البرّ والقسط في المسالمين من أهل الكتاب أولى.

فليس بالضّرورة إذن أن تكون علاقة المسلمين مع غير المسلمين علاقة قتال وحرب، ما داموا لم يقاتلوا المسلمين في الدّين، و لم يخرجوهم من ديارهم، و لم يظاهروا على إخراجهم. وقد قال تعالى:

﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ (النساء، 4 : 90).

ناهيك أنّ القتال في الإسلام له أدابه وأخلاقياته وضوابطه الشرعيّة..!! ولكلّ من هذه الثّوابت نماذج تطبيقيّة أصيلة، مثيرة للإقتداء، ذات مرتكزات تالية، التي تشكّل مقوّمات للخطاب الإسلامي المعاصر:

1) خطاب تقديم الترغيب على الترهيب، وتغليب التبشير على التنفير، وبذلك بدأ رسول الإسلام دعوته للناس أجمعين، ينادي فيهم: «**أيّها الناس ! قولوا: لا إله إلاّ الله تُفلحوا، وتَملكوا بها العرب، وتَدينُ لكم بها العَجَم، فإذا مُتُّم كنتم ملوكاً في الجنّة**» (محمد بن عبد الوهاب: 54).

2) خطاب يتّسم بالثبات – لاستشراف المستقبل – لا التذبذب، تجسّد هذا في خطاب رسول الله ﷺ حيث قال لعائشة رضي الله عنها: «**لَقَدْ لَقيتُ مِنْ قَوْمك مَا لَقيْتُ، وَكَانَ أَشَدَّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة،إذ عرَضْتُ نفسي على ابن عبد يَاليلَ بن عبد كُلاَل، فلم يُجبْني إلى مَا أرَدْتُ، فانطلقتُ وأنا مَهْمُومٌ على وَجْهي فلم أَسْتَفِقْ إلاّ بقَرْن الثعالب، فَرَفَعْتُ رأسي فإذا أنا بسَحَابَة قَدْ أظلّتْني، فَنَظرْتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقالَ: إنّ الله ﷻ قَدْ سَمعَ قولَ قومك لَكَ وما رَدُّوا عليك، وقد بعث اللهُ إليكَ ملَكَ الجبَال لتأمُرَه بما شئْتَ فيهم، قال: فناداني مَلَكُ الجبَال، وسلّم عليّ، ثم قال: يا محمّد! إنّ الله قد سَمعَ قولَ قَوْمكَ لك، وَأنا ملَكُ الجبَال، وقد بعثني ربُّكَ إلَيْكَ لتأمُرَني بأمْرِكَ فيمَا شئْتَ،إنْ شئْتَ أَنْ أُطْبقَ عليهم الأخْشَبَين، فقال له رسولُ الله ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ منْ أَصْلاَبِهم مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شَيْئًا**» (البخاري، **صحيح**، كتاب بدء الخلق، رقم: 2992) عن عائشة.

وما جسّده رسول الله ﷺ بما جاء من بنود في اتفاقيّة صلح الحديبية، ثمّ موقف عمر بن الخطاب ﷺ وحالة الرّفض التي تزعّمها وأيّدها جميع الصحابة رضوان الله عليهم، ما عدا الصّديق ﷺ، وكادت أن تكون فتنة لولا فضل الله تعالى ورحمته.. وفي طريق العودة نزلت:

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ (الفتح، 48: 1).

فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إيّاه، فقال: يا رسول الله ! أَوَ فَتحٌ هو؟ قال: «**نعم**»، فطابت نفس عمر ورجع. (المباركفوري، 1418هـ : 412).

3) خطاب يتّسم بالمرونة لا الميوعة، وضح ذلك في مواقف عدّة لرسول الله ﷺ حال تحرّك الجيش الإسلامي نحو مكّة، ويوم فتح مكة في إطار الصّور التالية:

قال علي بن أبي طالب لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف:

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ (يوسف، 12 : 91).

فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال رسول الله ﷺ – نزولاً على رغبة عمّه العباس رضي الله عنه بمراعاة طبيعة أبي سفيان النفسيّة وحبّه الفخر –: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن**»، وقوله : « **يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعل بكم ؟**» قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال : «**فإني أقول لكم كما قال يوسف لاخوته:**

﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف، 12 : 92).

"اذهبوا فأنتم الطلقاء"

(المباركفوري ، 1418هـ : 479، 487).

4) خطاب يتّسم بالثقافة لا السّخافة ، تجسّد هذا في موقف مصعب بن عمير رضي الله عنه الّذي نزل في ضيافة أسعد بن زرارة بالمدينة المنورة ، عند أوّل نزوله، وقد جاءه أسيد بن الحضير– سيّد بني عبد الأشهل – يهدّده بالقتل لينتهي عن الدّعوة ، فالتفت إليه مصعب بن عمير رضي الله عنه قائلا : ((**يا سيّد قومه، هل لك في خير من ذلك ؟**))، قال: وما هو ؟ قال: ((**أوَلاَ تجلس فتستمع ؟!، فإن رضيت أمرنا قبلتَه، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره**)) ، فأقبل عليه مصعب يذكر له حقيقة الإسلام ، ويقرأ عليه شيئًا من آيات القرآن، فانبسطت أسارير أسيد بن الحُضير وأشرق وجهه، وقال: ما أحسن هذا القول وأصدقه ، كيف يصنع من يريد أن يدخل في هذا الدّين ؟، قال له مصعب: ((**يطهّر ثوبه وبدنه ، ويتشهّد**))، ثمّ دخل في الإسلام. (خالد محمّد خالد، 1997م : 28).

5) خطاب يقدّم السّماحة على الحماسة ، يوضّح ذلك موقف رسول الله ﷺ من رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، الذي قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل، قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ، ثمّ كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**دعه، لا يتحدّث الناس أنّ محمّدًا يقتل أصحابه**». (البخاري، **صحيح**، كتاب تفسير القرآن، رقم: 4527) عن جابر بن عبد الله.

6) خطاب يتّسم بالتجدّد لا التجمّد ، يوضح ذلك اجتهاد معاذ بن جبل رضي الله عنه في أخذ الحُلل اليمنيّة بدل العين من زكاة الحبوب والثمار ، فيما رواه البخاري – معلّقاً بصيغة الجزم – : أنّ معاذاً قال لأهل اليمن : «**ائتوني بعرض ثياب خميص أو لبيس من الصّدقة مكان الشعير والذّرة ، أهون عليكم ، وخير لأصحاب النبيّ ﷺ بالمدينة** » (السيّد سابق ، 2001م : 451/1) .

7) خطاب ينشد المقاصد لا المفاسد، يوضح ذلك توقّف عمر ﷺ في قسمة سواد العراق حفظا لمصلحة الجماعة وأجيال الأمّة المستقبلة قائلا : «**لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلاّ قسمتها بين أهلها كما قسم النبيّ ﷺ خيبر**» (البخاري، **صحيح**، كتاب فرض الخمس، رقم: 2893) عن عمر.

وجه الاستدلال: إنّ عمر ﷺ نظر إلى مصلحة الأجيال القادمة الّتي قد لا تحظى بما يقيم أودها إذا قسمت الأراضي بين الفاتحين فقط؛ مما يحصر المال في أيدي فئة معينة تتوارثه دون الآخرين.

8) خطاب يتسم بالتفعيل لا الانفعال، يوضّح ذلك قوله ﷺ: «**من أنظر معسرًا أو وضع له، وقاه الله من فيح جهنّم، ألا إنّ عمل الجنة حَزْنٌ بربوة – ثلاثا – ألا إنّ عمل النار سهلٌ بسهوة، والسعيد من وقي الفتن، وما من جَرعة أحبّ إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبدٌ لله إلاّ ملأ جوفه إيمانا**». (أحمد، **المسند**، مسند بني هاشم، رقم: 2860) عن ابن عباس.

9) خطاب يتسم بالإنارة لا الإثارة، وهو ما جسّده ربعي بن عامر ﷺ بقوله أمام رستم قائد الفرس في القادسيّة للمفاوضة قبل بدء القتال: «**ما لهذا جئنا، إنّما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها**» (ابن كثير، 1998م: 621).

10) خطاب يذبّ إلى تحقيق العدل، ويندب إلى تحصيل الفضل، تجسّد هذا في موقف أبي قتادة ﷺ كان له دَيْنٌ على رجل، فطلب غريماً له، فتوارى عنه ثمّ وجده، فقال: إني مُعْسِر فقال: آلله ؟ قال: آلله، قال: فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة ، فلينفس عن معسر أو يضع عنه**» (مسلم، **صحيح**، كتاب المساقاة، رقم: 2923) عن عبد الله بن أبي قتادة.

11) خطاب ينشد بناء الإنسان العدْل، والتخلّص من الإنسان الكَلّ، ففي القرآن حكاية عن نبيّ الله يوسف عليه السلام بقوله تعالى:

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ (يوسف، 12: 55).

وقوله ﷺ:

"المؤمنون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم"

(النسائي، **سنن**، كتاب القسامة، رقم: 4665) عن علي بن أبي طالب.

12) خطاب تجديد التواصل لتوكيد حقوق التجاور، وقد جسّده الصحابي عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما– حينما ذُبحَتْ له شاة في أهله، فلمّا جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما زال جبرئيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنّه سيورّثه" (الترمذي، **سنن**، كتاب البرّ والصّلة، رقم: 1865)، عن عائشة.

13) خطاب ينشد الائتلاف وينبذ الاختلاف، ففي القرآن موقف يحكي فيه السّكوت عمّا يجب الإنكار فيه، بغرض جمع الكلمة وإبقاء الصّف، وتوحيد الأمّة من نبيّ كريم، يحكي موقفه حكاية إقرار لا إنكار، وهو ما دار بين نبيّين كريمين: موسى وهارون عليهما السّلام، حيث يعاتب ويلوم ويعنّف

موسى عليه السلام موقف أخاه هارون عليه السلام السّلبي إزاء اتخاذ بني إسرائيل عجلاً جسداً له خوار، وصاروا يعبدونه من دون الله (الآيات 87- 94 من سورة طه)، فكان تبرير هارون عليه السلام، حكى عنه القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ، قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ، قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ، أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ، قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ (طـــه، 20 : 90-94).

بيد أنّ ثمّة وقفات حول هذه الآية و إزاء القاعدة الفقهيّة (**السّكوت عمّا يجب الإنكار فيـــه**) وفقاً لثوابت الشّريعة الإسلاميّة الخاتمة، فيما يلي:

أ – السّكوت فيما يكون الأصل فيه عدم السّكوت، حرصاً على التوحّد والحيلولة دون التفـــرّق والتشرذم، ليس على وجه الإطلاق، ولا يتأتّى بحال توحيد الكلمة إلاّ بكلمة التوحيد .

ب – صحيح أنّ هارون عليه السلام حرص على عدم تفرّق القوم ، وتوحّدهم ما استطاع إليه ســـبيلا – وإن أشركوا بالله –؛ إذ إنّهم أقليّة حينذاك، وقد نجوا لتوّهم من بطش وتسلّط فرعون عليهم، فكانت واقعة مفاجئة في ظلّ غياب القيادة الملهمة نبيّ الله موسى عليه السلام – وبالرّغم من أنّ هارون عليه السلام نـــبيٌّ في جانب، إلاّ أنّه في الجانب الآخر شخصيّة من الرّعيّة –، فكان لابدّ من اجتهاد في ما لا نصّ فيه بمراعاة التهدئة ، والإمهال لعدم التّفرقة بانتظار القيادة النبيّ الرّسول موسى عليه السلام .. هذا من جهة، بيد أنّنـــا إذا أمعنّا استقراءً وتأمّلاً، نجد أنّ موقف هارون عليه السلام – ابتداء – لم يكن سلباً ، من حيث السّكوت فيما يكون الأصل فيه عدم السكوت، بل تقدّمه موقف إيجاب:

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾
(طه، 20 : 90).

كذا لم يكن مسوّغ هارون عليه السلام مجرّد خشية الفُرقة، بل موقفه نوعٌ من التّدافع لإقـــدام بـــني إسرائيل على قتله، كما حكاه القرآن في قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف7: 150).

فضلاً عن أنّ ذلك غير مرضيّ بدلالة تعنيف موسى عليه السلام أخاه هارون عليه السلام .

ج– إنّ اتخاذ القوم عجلا جسدا له خوار يعبدونه من دون الله ناتج عن انحـــراف فطـــرتهم، وتمادي جحودهم في إنكار نعم الله عليهم؛ بدأ أوّل ما بدأ بعد عبور موسى عليه السلام بهم البحـــر، فلمّـــا وصلوا إلى الشطّ الآخر من البحر مرّوا على قرية، فقالوا لنبيّهم موسى عليه السلام: اجعل لنا إلها كما لهم آلهـــة

قال: «**إنّكم قوم تجهلون**» (أحمد، **المسند**، مسند الأنصار، رقم: 20892) عن أبي واقد الليثـــي. فـــأنكر موسى عليه السلام عليهم بمجرّد هوى ميلهم إلى الشّرك.

د – ما ورد في هذه القصّة هو من قبيل (شرع من قبلنا ..)، وليكون شرع من قبلنا شرعًا لنـــا؛ بشرط الموافقة ما في شرعنا.

هـــ– إذا ما صادف الأقليّة المسلمة في واقعها المعاصر بمثل هذا الوضع، فالموقف الـــسّليم – والله أعلم – هو ردّ الفعل بالأسلوب الحضاري للإنكار بمراتبه الثلاث: اليد، أو اللّسان، أو القلب (**أضـــعف الإيمان**)؛ وذلك هو المقدّم وله الأولويّة على مجرّد السّكوت المطلق لكافة الجوارح، دون تمعّر الوجه.

و– كلّ ما له صلة بالربوبيّة والألوهيّة هو من الثوابت بمكان، والمساس بهـــذه الـــصّلة مـــساس بالثوابت، فإن كان توحّد الأقليّة المسلمة على الإشراك بالله شيئا فيه (**مصلحة**)، إلاّ أنّه يتضمّن مفسدة في الوقت ذاته، ويحتاج الأمر حينه إلى مرجّح، وفي المقابل فلا ريب أنّ توحيد الأقليّـــة المـــسلمة لله جلّ جلاله في ربوبيّته وألوهيّته وأسمائه وصفاته؛ هو أسمى المصالح ، وأسنى المقاصد.

ز– يُراد للأمّة الإسلاميّة – أقليّة كانت أم أغلبيّة في أيّ زمان ومكان وفي أيّ حال ومآل– الإيمان والأمن والأمان، والاهتداء والهداية، ولن يتحقق ذلك إلاّ بتحقيق قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (الأنعام، 6 : 82).

في حياتها العامّة والخاصّة. وفي الحديث : لمّا نزلت: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، قال أصحابه : وأيّنا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت :﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان، 31 : 13). (البخاري، **صحيح**، كتاب الإيمان، رقم: 31) عن عبد الله بن مسعود.

ح– إنّ رسول الله ﷺ هو المشرّع لأمّة الخيريّة، وشريعته الإسلاميّة الخاتمة هي الّتي عليها مـــدار الكمال والخلود. وقد وضح موقفه ﷺ من اتخاذ أشياء تُفضي إلى الشرك، حيث جـــاء في الـــسيرة: إنّ رسول الله ﷺ وأصحابه في طريقهم إلى حنين رأوا سدرة عظيمة خضراء ، يقال لها ذات أنواط، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون ، فقال بعض أهل الجيش لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم أنواط ، فقال: «**قلتم والذي نفسي بيده ! كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال: إنّكم قوم تجهلون، إنّها لسنن، لتركبنّ سنن من كان قبلكم سنة سنة**». (أحمـــد، **المسند**، مسند الأنصار، رقم: 20892) عن أبي واقد الليثي، وقد سئل النبي ﷺ: أيّ الذّنب أعظم عنـــد الله ؟ قال: «**أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك**». (البخاري، **صحيح**، كتاب التوحيد، رقم: 6966) عن ابـــن مسعود.

ط– صحيح أنّ الشريعة الإسلاميّة شريعة سمحـــة، إلاّ أنّهـــا في المقـــام الأوّل حنيفيّـــة، قـــال رسول الله ﷺ: «**أحبّ الدّين إلى الله الحنيفيّة السّمحة**» (البخاري، **صحيح**، كتاب الإيمان، بـــاب الدّين يُسر).

والحنيفيّة هي الخالية من شوائب الشرك، كما أنّ المسلم بعقيدته السّليمة وإسلامه العتيد يعلو ويسمو، يقول تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران، 3 : 139).

وكان ابن عباس رضي الله عنهما مع أمّه من المستضعفين و لم يكن مع أبيه على دين قومه، وقال: «**الإسلام يعلو ولا يُعلى**» (البخاري، **صحيح**، كتاب الجنائز، تعليقا، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلّى عليه)، والشرك يدنو ويُدني؛

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ (النحل، 16 : 106).

فثمّة مرونة في الشّرع بإقرار الرّسول ﷺ في التّفاعلات التي تمسّ بالعقيدة، على النّحو: عمّار بن ياسر رضي الله عنه، حيث كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهًا لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . ففي رواية ابن جرير الطبري: أخذ المشركون عمار بن ياسر رضي الله عنه، فعذّبوه، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ : «**كيف تجد قلبك ؟** » قال: "مطمئنا بالإيمان"، قال النبي ﷺ: «**إن عادوا فَعُدْ** ». (المباركفوري، 2000: 746).

وثمّة ثبات في الشّرع الإسلامي باتفاق العلماء على أنّ المُكرَه على الكفر يجوز له أن يوالي ابقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى، على نحو ما جسّده بلال رضي الله عنه حين فعلوا به الأفاعيل، حتى أنّهم ليضعوا الصّخرة العظيمة على صدره في شدّة الحرّ، ويأمرونه بالشّرك بالله، فيأبى عليهم، وهو يقول: "أحد ..أحد"، ويقول : "والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها".

وكذلك جسّدها حبيب بن زيد الأنصاري رضي الله عنه لّما قال له مسيلمة الكذّاب: أتشهد أنّ محمّدًا رسول الله ؟ فيقول: "نعم"، فيقول: أتشهد أنّي رسول الله ؟ ، فيقول: "لا أسمع"، فلم يزل يقطعه إرباً إربًا، وهو ثابت على ذلك. (المباركفوري، 2000: 746).

م- لعلّ خير مثال على السّكوت في موضع يكون الأصل فيه عدم السّكوت هو: أنموذج السّكوت الإيجابي، وهو سكوت رسول الله ﷺ عن الفئة التي لم تؤدّ صلاة العصر قبيل الوصول إلى بني قريظة، تمسّكا بظاهر أمر رسول الله ﷺ: «**لا يصلينّ أحد العصر إلاّ في بني قريظة**» (البخاري، صحيح، كتاب الجمعة، رقم :894) عن ابن عمر، بينما أدّت الفئة الأخرى الصّلاة قبيل الوصول إلى بني قريظة حفاظاً على أدائها في وقتها، وكان بإمكان رسول الله ﷺ أن يبيّن أيّ من الفئتين الأقرب إلى الصّواب. وعلى هذا يمكن اعتبار سكوت رسول الله ﷺ هو سكوت في موقف الأصل فيه عدم السّكوت، إذا اعتبرنا أنّ الفئة التي لم تصلّ العصر، وتمسّكت بظاهر الأمر، قد جانبت الصّواب، ونظرنا في المقابل إلى توكيد الشريعة الإسلاميّة على أداء صلاة العصر في وقتها ، بقوله تعالى:

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (البقرة، 2 : 238).

وخصّ تعالى من بينها — أي الصّلوات — بمزيد التأكيد الصّلاة الوسطى، وهي صلاة العصر. قال الترمذي والبغوي رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصّحابة وغيرهم. بدلالة قول رسول الله ﷺ يوم الأحزاب:

"شغلونا عن الصّلاة الوسطى، حتى غابت الشمس" (مسلم، **صحيح**، كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، رقم: 995). عن علي بن أبي طالب، باب: الدّليل لمن قال الصّلاة الوسطى هي صلاة العصر.

ويؤكّد ذلك الأمر بالمحافظة عليها قول رسول الله ﷺ: «**الّذي تفوته صلاة العصر، كأنّما وُتر أهله وماله**» (البخاري، **صحيح**، كتاب مواقيت الصّلاة، رقم: 519) عن عبد الله بن عمر.

وقد حرصنا من خلال هذه النماذج التطبيقيّة المجسّدة من لدن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام أن نستشف تفصيل ما أجمله رسول الله ﷺ في حديثه عن ملامح وسمات فئة مسلمة، اصطلح عليها العلماء الفرقة الناجية والطائفة المنصورة – وقليلٌ ما هم – بقوله ﷺ: «**ما أنا عليه وأصحابي**» (الترمذي، **سنن**، كتاب الإيمان، رقم: 2779) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وبالتالي نحاول قدر المستطاع تنزيلها على واقع الحياة المعاصرة؛ ليكون هو الخطاب الإسلامي، فما على المسلم إلاّ أن يعرف إسلامه، ويعرف كيف يدعو إليه ، وسوف يكون مؤثراً وفاعلاً أينما كان، والرّسول ﷺ يقول: «**اتّق الله حيثما كنت**» (الترمذي، سنن، كتاب البرّ والصّلة، رقم: 1910) عن أبي ذر.

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف، 7: 128).

ومسؤوليّة المسلم مسؤوليّة عالميّة لاستنقاذ الناس وإلحاق الرّحمة بهم ، والفرد المسلم قد يكون أمّة.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل، 16: 120).

فلا تقاس الأمور بالأكثريّة والأقليّة، فكم من أكثريّة لاقيمة لها، وكم من أقليّة تمتلك القيمة الكبرى، إذا أحسنت التعامل مع سنن التدافع الحضاري. (خالد محمد عبد القادر. 1998. العدد 61: 37، تقديم الشيخ عمر عبيد حسنه).

الختام

توصّل الباحث خلال هذه الدّراسة إلى المرتكزات التالية الّتي تشكّل مقوّمات خطاب الأقليّة المسلمة:

– التوكيد (**أوّلاً**) على أن لا يخدم هذا الخطاب إلاّ المصلحة الإسلاميّة، متصفاً بالوسطيّة والاعتدال.

– التذكير (**ثانياً**) بأن يتوجّه هذا الخطاب إلى المجتمعات الإنسانيّة كافة، بسعة الأفق نحو التعايش والتعاون الإنساني لما فيه الخير لجميع البشر، والسّعي إلى إقرار مبادئ الحق والعدل والسّلام.

– التنبيه (**ثالثاً**) على أن يتلاءم هذا الخطاب وظروف كلّ بيئة، وأحوال كلّ فئة من الناس.

– الترشيد (**رابعًا**) بأن يرمي هذا الخطاب إلى الإصلاح والتجديد والتطوير على مستوى الذات، ويسعى إلى توضيح حقائق الإسلام والرّد على الشبهات المثارة حوله بالمنهاج الوسطي على مستوى الآخر.

– الاستيعاب (**خامسًا**) لأن يتّسم هذا الخطاب بالانفتاحيّة والاندماجيّة في أوساط المحيط المحلّـــي والإقليمي والدّولي؛ باستيعاب المتغيّرات والمستجدّات .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم. (مصحف المدينة المنوّرة للنشر الحاسوبي). الإصدار1.0. مجمّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

موسوعة الحديث الشريف. (الكتب التسعة) . الإصدار الثاني (1–2) 1998–2000 . شركة حـــرف لتقنية المعلومات.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير . 1998. **البداية والنهاية**، تحقيق د. عبد الله عبد المحسن التركـــي، هجرللطباعة والنشر.

محمّد بن عبد الوهاب. **مختصر سيرة الرسول ﷺ**. مكتبة الفيصليّة.

المباركفوري، صفي الرحمن. 2000. **المصباح المنير في تهذيب ابن كثير**، الرياض: دار السلام. ط 2.

المباركفوري، صفي الرحمن. 1418. **الرحيق المختوم**، الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع، ط1.

خالد محمّد خالد. 1997. **رجال حول الرّسول**، بيروت: دار الفكر. ط 1.

السيّد سابق. 2001. **فقه السنة**، الرّياض: مكتبة الرّشد للنشر والتوزيع. ط 1.

القرضاوي، د.يوسف القرضاوي. 2002. **الصّحوة الإسلاميّة من المراهقة إلى الرشد**. القاهرة: دار الشروق.

القرضاوي، د.يوسف القرضاوي. 2001. **في فقه الأقليّات**. سوريا: دار الشروق، ط 1.

القرضاوي، د. يوسف القرضاوي. 2005. **مجلّة الرّابطة**، زاوية قضايا "فقه الأقليّات" يتحقق بالاجتهاد ومنهج التيسير. العدد (471).

زقزوق، د. محمود حمدي زقزوق. 2005. **التحديات التي تواجه الإسلام في العصر الحديث**، ورقة عمل في المؤتمر الإسلامي الدّولي، عمّان: الأردن، 4–6. يوليو 2005م.

التويجري، د. عبد العزيز بن عثمان التويجري. 2003. **الخطاب الإسلامي بين الأصالة والمعاصرة**. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو.

التويجري، د. عبد العزيز بن عثمان التويجري. 2003. **الجاليات والمؤسسات الإسلامية ودورها في إبراز صورة الإسلام**. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو.

عبد الرّحمن، د. عبد الله الزبير عبد الرّحمن. 1421. **دعوة الجماهير: مكونات الخطاب.. ووسائل التسديد**. كتاب الأمة – وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، العدد (76).

عبد القادر، خالد محمد عبد القادر. 1998. **من فقه الأقليّات المسلمة**. كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، العدد (61) "تقديم عمر عبيد حسنه".

العمري، أحمد سويلم العمري. 1985. **معجم العلوم السياسيّة**. القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.

مجلة الفرقان. 2006. **الأقليّات المسلمة بين فقه الضرورة وواقع المعاناة**. ملف العدد (362).